دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية
Ibn Khaldon Center for Humanities and Social Sciences
OPEN ACCESS

مراجعة كتاب

Book review

«تجرؤ القطيعة: أفريقيا ما بعد كوفيد-19»

رشيد بن بيه
أستاذ دراسات الهجرة والنوع والسياسات الاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر؛ وبالمدرسة الوطنية للهندسة المعمارية، أكادير، المغرب

Rachid Benbih
Professor of Migration Studies, Gender and Social Policies, the Faculty of Arts and Humanities, Ibn Zohr University & the National School of Architecture, Agadir, Morocco

rbenbih79@gmail.com

العنوان الأصلي للكتاب: *Oser les ruptures: L'Afrique de l'après-Covid-19*.
المؤلف: بيير كيبري (مشرف).
الناشر: Terra Mater International.
مكان النشر: باريس.
سنة النشر: 2020.
عدد الصفحات: 415 صفحة.

صدر كتاب تجرؤ القطيعة: **أفريقيا ما بعد جائحة كوفيد-19**[1] في سبتمبر 2020، وهو عمل جماعي، ومشروع شارك في إعداده 22 باحثًا وخبيرًا أفريقيًا، ينتمون إلى أكثر من دولة أفريقية، وأكثر من تخصص (التاريخ، والعلوم الطبية، وعلم الاجتماع، والإعلام، والعلوم البيئية، والهندسة، والقانون... إلخ)، وإلى ميادين خبرة متنوعة (المالية

1 - Pierre Kipré (dir.), *Oser les ruptures: L'Afrique de l'après-Covid-19* (Paris: Terra Mater International, 2020).

للاقتباس: بن بيه، «مراجعة كتاب: "تجرؤ القطيعة: أفريقيا ما بعد كوفيد-19"، لبيير كيبري - مشرف»، **مجلة تجسير**، المجلد الثاني، العدد 2، 2020

https://doi.org/10.29117/tis.2020.0045

© 2020، بن بيه، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية وفقًا لشروط Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0). تسمح هذه الرخصة بالاستخدام غير التجاري، وينبغي نسبة العمل إلى صاحبه، مع بيان أي تعديلات عليه. كما تتيح حرية نسخ، وتوزيع، ونقل العمل بأي شكل من الأشكال، أو بأية وسيلة، ومزجه وتحويله والبناء عليه، طالما يُنسب العمل الأصلي إلى المؤلف.

والضريبة، والمقاولة... إلخ). وتتمثل ميزة هذا الكتاب في إعداده استنادًا إلى منهجية أكاديمية؛ فعلاوة على تأسيس لجنة علمية أشرفت على تتبع إسهامات الباحثين، حررت ورقتين تأطيريتين إرشاديتين غير ملزمتين للمساهمين في مشروع: «التفكير في أفريقيا ممكنة ما بعد جائحة كوفيد-19». عُنونت الورقة الأولى بـ: «نحن وفيروس كورونا: مقدمة عامة إلى تفكير أفريقي حول فيروس كورونا: القضاء على مخاوفنا»، والثانية بعنوان: «مقاربة استراتيجية[2] لما بعد كوفيد-19»[3].

وكما تبين الورقة الثانية، يطمح المشروع أن يكون استراتيجيًا واستشرافيًا، فهو من جهة يسعى إلى وضع سيناريوهات التغيير في أفريقيا، ومن جهة أخرى يرنو إلى تجاوز المدى القصير في التخطيط لإدراج المشاريع في منظور بعيد المدى، وربما هذا هو الطريق الوحيد، حسب هذه الورقة، الذي يقود نحو قرارات ملائمة ومستدامة، ويوفر الوقت والموارد الضرورية لمواجهة التحولات والتحديات المستقبلية، ويؤدي إلى تجاوز وضع رجل الإطفاء الذي يتفاعل مع الحدث إلى موقف الرجل الاستراتيجي الذي يستثير الحدث.

يؤمن المساهمون في الكتاب بأن أزمة كوفيد-19، والاضطرابات التي رافقتها، تعد فرصة لإعادة التفكير في مستقبل أفريقيا[4]، كي تأخذ القارة زمام المستقبل بيديها، لذلك عكفوا على تحليل وضعية أفريقيا تحليلًا شاملًا يشمل الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والصحية، وركزوا في جميع مساهماتهم على مقترحات تمكّن من تطوير الوضع في أفريقيا في كل ميدان، حسب تخصص كل باحث، وهكذا نقرأ في الكتاب، على سبيل المثال، مقترحات لتطوير النظام الصحي في أفريقيا، وتحقيق السيادة الصحية[5]، وإعادة بناء أنظمة الحماية الاجتماعية وفق منظور الحق والتنمية[6]، والاهتمام بالعلم وتسخير الذكاء الاصطناعي لمواجهة الأوبئة[7].

ولعل ما يؤكد رغبة المشرف على مشروع الكتاب في استثارة التغيير هو إرسال نُسخ من هذا الكتاب، فور إصداره، إلى مختلف المؤسسات الدولية والإقليمية[8] (الاتحاد الأفريقي، والاتحاد الأوروبي، ورؤساء الدول الأفريقية، ومنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، ومنظمة الصحة العالمية... إلخ)، والشروع في تنظيم ندوات حول الكتاب.

بنية الكتاب

تمخّض عن هذا المشروع كتاب من 154 صفحة، تتوزع على ثلاثة أقسام: يحمل القسم الأول عنوان: «الإشكاليات الأفريقية: المفاهيم والتساؤلات والمواقف»، بينما وُسِم القسم الثاني بـ: «الوباء في أفريقيا: تقييم الأجوبة وتغيير النماذج الإرشادية»، أما القسم الثالث فخصص لسيناريوهات تصور: «مخطط استراتيجي من أجل أفريقيا الغد».

وبما أن مقالات الكتاب متعددة، وتتقاطع في نقاط مشتركة، ارتأينا تقديم قراءة في هذه النقاط، وهي:

- تفكير غير استعماري في وباء كوفيد-19.
- وباء كوفيد-19 وضرورة تغيير النماذج المتبعة.
- نقد تدبير القادة الأفارقة للجائحة.

2 - José Brito, "Une approche prospective pour l'après-covid-19: note méthodologique," in: Kipré (dir.), p. 411.

3 - Pierre Kipré, "Introduction générale: le Coronavirus et nous. Vaincre nos peurs," in: Kipré (dir.), p. 24.

4 - Issa Malick Coulibaly, "Le covid-19: une opportunité pour changer le paradigme en matière de santé en Afrique," in: Kipré (dir.), p. 283.

5 - Georges-Armand Ouegnin, Jonas Akpé Adou & Kakou N'Guessan Sonan, "Pour une souveraineté sanitaire," in: Kipré (dir.), pp. 270-282.

6 - Rachib Benbih, "Le développement communautaire intégré comme logique de protection sociale en Afrique," in: Kipré (dir.), pp. 217-229.

7 - Demba Traoré, Rachel Gnali-Djaman & Agénor Zamble "La contribution des sciences de la communication dans la lutte contre le Covid-19," in: Kipré (dir.), p. 399.

8 - أخبر منسق المشروع بيير كيبري (Pierre Kipré) معدّ هذه القراءة، بإرساله الكتاب فور إصداره إلى الاتحاد الأفريقي، وزعماء الدول الأفريقية، والاتحاد الأوروبي، والمنظمات الدولية الأممية... إلخ.

- تحليل الأزمة المالية لبلدان أفريقيا في ضوء الوباء.
- نقد خصوصية الوباء في القارة.
- مقومات أفريقيا المستقبل.

قبل تقديم قراءة في تصور المساهمين في الكتاب للقضايا السِّت المشار إليها، لا بد من الإشارة إلى أهمية هذا العمل، التي تتمثل في شرح الباحثين المساهمين في الكتاب وجهة نظر العلم في وباء كوفيد-19 شرحًا يمكن عموم القراء من فهم هذا الفيروس، وفي استناد الباحثين في تحليل الوضع الراهن السياسي والاقتصادي والاجتماعي إلى خلفية تاريخية[9] تحلل الحاضر ضمن تطورات الظروف العامة بهذه القارة منذ الاستقلال، كما يتوسل هذا التحليل بمقاربة فكرية[10] تُخرج موضوع البحث من إطاره التقني الضيق، لتمنح القارئ مجالًا رحبًا للتفكير في غد أفريقيا.

وأكثر مِن ذلك، يقدم الكتاب معطيات موثقة حول تاريخ الأوبئة، والوضع الوبائي في أفريقيا، وتحولات الوضع الديموغرافي والاقتصادي والاجتماعي والمالي في أفريقيا الراهنة، ويرصد آثار الجائحة الاقتصادية؛ فبسبب كوفيد-19 سينخفض النمو الاقتصادي في أفريقيا جنوب الصحراء من 2.4 في المئة سنة 2019 إلى ما بين 2.1- و5.1 في المئة سنة 2020[11]. وسيتم تأخير أداءات الدين العمومي المتوقعة سنة 2020 إلى سنة 2025، كما سينعكس الوباء سلبيًا على الاقتصاد في أفريقيا الذي سيتراجع تراجعًا غير مسبوق منذ 25 سنة، حيث فقد ملايين من الأفارقة مصدر دخلهم في القطاع غير المهيكل الذي يمثل 80 في المئة في غالبية الدول الأفريقية[12].

يعرض الكتاب تاريخ السياسات الصحية في أفريقيا التي نجهل حولها الكثير، وظروف بناء أنظمة الصحة الحديثة[13] فيها خلال الفترة 1920-1930، ويقدم مؤشرات مُحيَّنة حول الوضع الصحي هناك، نستخلص منها أنه رغم التقدم الملحوظ (تراجع وفيات الأطفال أقل من خمس سنوات، وارتفاع أمد الحياة ارتفاعًا نسبيًا)، فقد تفاقمت الأمراض المنقولة؛ إذ في نهاية 2018 يعاني 25.7 مليون شخص مرض فقدان المناعة المكتسبة.

لم يغفل الكتاب قضية الأمن الغذائي في أفريقيا في زمن كوفيد-19، إذ عكف على تحليل وضعيته قياسًا إلى المعدل الدولي لحساب الأمن الغذائي، واستخلص استنادًا إلى معطيات مقارنة أنه لا توجد دولة أفريقية حققت الأمن الغذائي، على نحو ما تُبين إيرادات المواد الغذائية لعدة دول أفريقية[14].

وتبين هذه المعطيات، وأخرى ترتبط بعدة ميادين، أهمية الكتاب الأكاديمية للباحثين ومختلف المهتمين بأفريقيا من سياسيين وصحافيين، وتزداد هذه المعطيات أهمية كونها تعكس وجهة نظر باحثين أفارقة من قضايا عدة، نجدها مجتمعة في كتاب واحد، كما يجد الباحث المتخصص في ساحل العاج ثلاث دراسات[15] مخصصة له في ظل جائحة كوفيد-19.

علاوة على أهمية الكتاب المذكورة آنفًا، يكتسي النَّفس النقدي المميز له خصيصته الفريدة، فعبره يحاول المؤلفون إقناع القراء وصناع القرار بالبدائل المقترحة في نهاية مساهماتهم، ما يجعل من الضروري بمكان التركيز على أوجه النقد

9 - Tayeb Chentouf, "L'histoire général de l'Afrique en 2020," in: Kipré (dir.), pp. 157-170.

10 - Mohamed Moufti, "Encore une chance pour l'être au monde," in: Kipré (dir.), pp. 70-82

11 - Félix Atchadé, "Santé, justice sociale et l'équité comme normes," in: Kipré (dir.), p. 102.

12 - Ibid.

13 - Ibid., p. 110.

14 - Seydou Soro, "Covid-19 et la sécurité alimentaire en Afrique," in: Kipré (dir.), pp. 359-361.

15 - Emmanuel bissagnéné, "Réflexions sur l'infection au coronavirus ou Covid-19 en Côte d'Ivoire," in: Kipré (dir.), pp. 190-200; Jimmy Gauthé, "Pandémie de covid-19: Transformer la crise sanitaire en opportunité sociopolitique et économique e, cote d'ivoire," in: Kipré (dir.), pp. 201-216; Raymond Koudou Kessié, "L'après-Covid-19 sonnera-t-il l'hallali d'une classe de dirigeants africains?" in: Kipré (dir.), pp. 246-265.

المقدمة لطرق التفكير والنماذج المتبعة في أفريقيا، قبل المرور إلى تحليل الحلول المقترحة لبناء أفريقيا الغد كما يطمح إلى ذلك معدّو الكتاب.

أولًا: نقد ودعوة إلى تغيير النماذج

1. إبستيمولوجيا غير استعمارية

تدعو الإبستيمولوجيا غير الاستعمارية إلى التخلي عن استنساخ النماذج في التفكير والتدبير، وهكذا تدافع مساهمة سابيلو ندوفو غاتشيني عن ضرورة إعمال المعرفة الأفريقية وإبستيمولوجيا بلدان الجنوب[16] أثناء البحث عن حلول لوباء كوفيد-19، ويُسند رأيه غير الاستعماري بكون البلدان الغربية لا تملك تجربة معاصرة في مواجهة الأوبئة مثل تلك التي تمتلكها أفريقيا ودول الجنوب التي ما زالت شعوبها تتعايش مع الأمراض، كما ينتقد إجراءات العزل الاجتماعي المقلدة للدول الغربية نظرًا إلى آثارها الوخيمة، اقتصاديًا واجتماعيًا، ويتبين أن مساهمات الباحثين جميعها تتخذ مسافة نقدية من المعرفة الغربية، وتدعو إلى مساهمة أفريقية فعالة في المعرفة الطبية، بل طالبت بأفريقانية البحث العلمي والتكوين من أجل التنمية، قصد تجاوز إكراهات الأكاديميا الغربية التي تحتكر التصديق على نتائج العلم، ولا تعترف بالعلم إلا إذا نُشر في مجلات غربية[17]، ما يجعلها مقبرة المبادرات العلمية الأفريقية، كما دعا إلى بناء أكاديميا أفريقية تستجيب لحاجات القارة التنموية.

2. نقد الانكفاء الوطني وظلم النظام الاقتصادي العالمي

تعتبر العلاقات بين الدول الأفريقية أحد أهم الجوانب التي شملها النقد، بسبب انكفاء الدول الأفريقية على نفسها بعد ظهور الوباء، وغلبة التدبير الوطني على التدبير الإقليمي، على الرغم من طبيعة المرض العابرة للحدود، كما يشهد على ذلك غياب مخطط قاري أفريقي لمواجهة الوباء، ما يضع عقبات حقيقية أمام مشروع تقديم جواب قاري وجماعي ضد الوباء. وبقدر ما يكشف هذا النقد التناقض في العلاقات الدولية، فإنه يبين حجم الصعوبات التي تعترض وضع مشروع استراتيجي مشترك مثل ما يدافع عنه هذا الكتاب.

يؤكد الكتاب أنه ليس بصدد إعادة إنتاج خطاب حول العولمة؛ إذ بشكل ميكانيكي يمكننا أن نندمج في عالم شغلنا فيه بالتدريج مكانة أقل منذ القرن السادس عشر، ولا بوضع أنفسنا كذلك بشكل فردي في خدمة أقوياء العالم ومساعدتهم في إعادة إنتاج النظام الحالي، بل بقدرتنا – نحن الأفارقة – على تأكيد مواقفنا لقول وإنجاز ما نريد لأنفسنا بأنفسنا بسلك بعض طرق التعاون الدولي أحيانًا، والبدء في إحداث المقاطعة الضرورية في وضعنا كنظام فرعي أدنى في نظام العولمة، والتحرر من ظلم العلاقات الدولية الحالي، وإحياء جذوة الأمل التي انبعثت في شعوب القارة أثناء الاستقلالات الوطنية في الستينيات.

3. تغيير البراديغم الاقتصادي

نقرأ في هذا العمل اتفاقًا على نقد التوجه النيوليبرالي الذي انخرطت فيه أفريقيا، ودعوة إلى القطع مع السياسات النيوليبرالية المستوحاة من توافق واشنطن، بمسمياتها المختلفة: «التقويم الهيكلي»، و«استراتيجية التنمية المُسرَّعة»، و«مبادرة الدول الأكثر مديونية»، و«الوثيقة الاستراتيجية لتقليص الفقر»، التي تحكمها كلها مسلّمةٌ مفادها أن السوق قادرة على توليد النمو الاقتصادي الذي يتم خلطه بالتنمية. بخلاف ذلك، يدعو هذا العمل الجماعي الى مواجهة هذه الأيديولوجيا، عبر العودة إلى الدولة الاجتماعية. ولعل الدعوة إلى تغيير النماذج لم تكن شأنًا أفريقيًا فقط، بل حتى الدول الأوروبية بدأت نخبها السياسية تُسائل النموذج الاقتصادي القائم، مثلما يتجلى ذلك في تصريحات الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون في 12 مارس 2020 الداعية إلى استخلاص الدروس من جائحة كوفيد-19، ومساءلة النموذج التنموي

16 - Sabelo J. Ndlovu-Gatsheni, "Provincial notes on covid-19: Deconlonial reflections on a globl crisis," in: Kipré (dir.), p. 45.

17 - Ahoua Don Mellou, "Les problématiques de la recherche scientifique articulées à celles de l'éducation formation et du développement," in: Kipré (dir.), p. 152.

الذي انخرط فيه العالم[18]، وهو ما يبين إخفاق النيوليبرالية في تأمين مستقبل الشعوب.

يلاحظ اتفاق المساهمين في الكتاب على التفكير في الحماية الاجتماعية باعتبارها سياسة تنمية وحقًا من حقوق الإنسان؛ إذ يؤدي نموذج التنمية الجماعاتية المندمجة، حسب الكتاب، إلى توفير الحماية الاجتماعية لعموم الأفارقة، ويرى أن هذا النموذج يلائم واقع أفريقيا وخصوصية الإنسان الأفريقي، على المدى القريب والمتوسط. ولا يشمل تغيير البراديغمات تلك التي تتبعها الدول، بل حتى تلك يقترحها التي البنك الدولي، وفي مقدمتها خوصصة قطاع الصحة، وتركه للسوق، والاكتفاء بتقديم بعض الدعم للمعوزين، وهذا غير ممكن في بلدان أفريقية تعرف عجزًا اجتماعيًا كبيرًا، لذا تتبين ضرورة التفكير في الحماية الاجتماعية خارج منطق السوق، أي باعتبارها حقًا من حقوق الانسان، وبرنامجًا تنمويًا لأن من الممكن تمويل نظام الحماية الاجتماعية بالرهان على الإمكانيات الذاتية للبلدان الأفريقية من خلال إصلاح ضريبي كفيل بتجاوز الخصاص المالي المسجل.

4. تحليل الأزمة المالية لبلدان أفريقيا في ضوء الوباء

حلل الكتاب[19] مختلف آليات تدبير الخصاص المالي الذي واجته الدول الأفريقية أثناء سعيها إلى تنفيذ برامج مواجهة وباء كوفيد-19، متوقفًا عند مختلف المبادرات التي اتخذتها هذه الدول. فعلى مستوى الميزانية، جمدت الدول النفقات، وسمحت فقط بصرف النفقات الضرورية، كما أحدثت صناديق لتدبير الوباء، وفتحت اعتمادات مالية إضافية لمواجهة نفقات طارئة. ولدعم القطاعين الاقتصادي والاجتماعي، قررت الدول الأفريقية تبنّي إعفاءات ضريبية، ورصدت دعمًا ماليًا لمساعدة الفئات المتضررة من الوباء، وسمحت برلماناتها للحكومات بتجاوز معدل الدين الخارجي المسموح به. وقد انعكست هذه الإجراءات سلبيًا على المداخيل الضريبية للدول، وإيجابيًا على تطور نفقات الصحة، غير أن وَقْع هذه النفقات محدود بالنظر إلى العجز المتراكم في ميدان البنيات الصحية الأساسية، الموروثة، في جانب منها، من تطبيق برامج التقويم الهيكلي في أفريقيا. وعلى مستوى منطقة الغرب الأفريقي، قرر الاتحاد الاقتصادي والنقدي لدول غرب أفريقيا التوقيف المؤقت لاتفاق الاستقرار الاقتصادي والنمو الذي وضع مبادئ عدة، منها ألا تتجاوز نسبة العجز في الميزانية3 في المئة[20]. وبيّن الكتاب كذلك دور المنظمات الأفريقية المتخصصة في التمويل والتنمية، وفي مجال الصحة، مثل: منظمة الصحة لغرب أفريقيا، والمجموعة الاقتصادية لدول غرب أفريقيا، اللتين قدمتا دعمًا للدول الأعضاء، وانتقد في المقابل المساعدات والقروض المالية الدولية، لأنها تعمق مديونية الدول المتفاقمة أصلًا، وتخنق اقتصاداتها وخصوصًا أن مدة الاسترجاع محددة في أمد قصير، كما كشف مفارقات دعم بعض الدول الغربية لأفريقيا، مثل الدعم الفرنسي الذي وجِّه إلى المؤسسات الفرنسية العاملة في أفريقيا، مثل معهد البحث من أجل التنمية (IRD)، ومعهد باستور[21].

5. نقد تدبير القادة الأفارقة للجائحة

انتقد الكتاب تبنّي القادة الأفارقة إجراءات مماثلة لتلك التي اتبعتها الدول الغربية. فبعد ظهور وباء كوفيد-19، أقدمت الدول الأفريقية، على غرار الدول الأوروبية، على إغلاق حدودها، وتطبيق إجراءات الحجر الصحي من دون الأخذ في الاعتبار أن البنيات الاقتصادية والاجتماعية بأفريقيا مختلفة عن بنيات الدول الغربية، وخصوصا أن مجمل النشاط الاقتصادي في الدول الأفريقية غير مهيكل، إضافة إلى أنها تعاني ضعفًا في توسيع شبكات الحماية الاجتماعية التي تشمل أقل من 20 في المئة من الساكنة.

وبالقدر نفسه نقرأ في الكتاب نقدًا لخطاب مسؤولي الأمم المتحدة (الأمين العام للأمم المتحدة، والمدير العام لمنظمة الصحة العالمية) وهما اللذان توقّعا الأسوء للقارة الأفريقية بسبب هذا الوباء المستجد (ملايين المصابين والوفيات)، من

18 - Erik Kahé, "Quels enseignement l'Afrique peut-elle tirer de la gestion de la pandémie de Covid-19 par le néolibéralisme?" in: Kipré (dir.), p. 122.

19 - Félix Tano, "Les moyens financiers des états à l'épreuve de l'urgence sanitaire en Afrique," in: Kipré (dir.), p. 326.

20 - Ibid., p. 329.

21 - Ibid., p. 342.

دون تحليل وبائي يتمتع بالمصداقية، لأن تصريحهما لم يضع في الحسبان، تجربة الأفارقة القريبة في مقاومة الأوبئة، وغلبة الفئة الشبابة في الهرم السكاني الأفريقي، وتفردها بعادات غذائية خاصة، والفروق بين الأفارقة والأوروبيين في مستويات استهلاك الأدوية التي تمنع أجسادهم من تطوير مناعة طبيعية[22].

لقد كان على العلماء الأفارقة، وفق الكتاب، التركيز على هذه الخصوصية الأفريقية على نحو يبين للقادة أنه لا جدوى من اتباع النصائح الغربية، ويتوقع أن يمنح مثل هذا التوجه المقاومة الضرورية للاقتصاد الأفريقي. لكن تلاحظ سلبية في البحث عن الحلول المحلية، ومقاومة غربية مستترة للمبادرات العلمية الأفريقية بدعوى عدم استجابتها للمعايير العلمية (الغربية طبعًا!).

وبقدر ما انتقد الكتاب نتائج الألفية من أجل التنمية، وأهداف التنمية المستدامة الأممية، يرى أن أهداف مذكرة 2063 التي تبناها قادة القارة الأفريقية سنة 2015 تؤلف استراتيجية لمستقبل القارة، فهي تترجم وعيهم، بحسب زعم الدراسة، بضرورة تحديد أولويات برنامج أفريقيا المستقبلي[23].

6. قد ضعف الوعي الصحي

يرتبط ضعف الوعي الصحي بضعف مماثل للوعي التاريخي[24]، بما يعنيه من استيعاب للماضي وتموقع في الحاضر وتطلع إلى المستقبل. وعلى الرغم من كون مبادرة منظمة الصحة العالمية في مؤتمرها المنعقد بمدينة وكادوكو خلال الفترة 28-30 مارس 2008، فإن الوقائع تبيّن ضعف الوعي الصحي لدى القادة الأفارقة والسكان معًا، ويتجلى ذلك في ضعف المؤشرات الصحية، وتدهور الأنظمة الصحية (العرض والطلب معًا)، وانتشار الطبابة الشعبية. وتتمثل أسس تطوير الوعي الصحي، حسب الكتاب، بضرورة انخراط الخبراء الأفارقة في مواجهة التحولات البيئية، وبناء السياسة الصحية، ومواجهة الطب التقليدي، وإنجاز دراسة متعددة التخصصات حول الوعي الصحي بهدف تطويره.

7. نقد وهم خصوصية القارة الأفريقية في مقاومة المرض

ينتقد الكتاب التمثلات الرائجة حول وباء كوفيد-19 بأفريقيا، من قبيل أن الأفارقة يتمتعون طَبعيًا بمناعة ضد هذا الوباء، وفي كون حرارة المنطقة تقيهم خطورة الفيروس، ويقدم حججًا ضد هذه الصور النمطية التي رددها بعض الأفارقة أنفسهم، لأن هذا الفيروس المنتشر في أميركا أصاب غالبية الأميركيين السود، إذ مثل عدد المتوفين الأفرو-أميركيين، بسبب كوفيد-19 ما يعادل 70 في المئة من مجموع المتوفين بالوباء[25]. ويبين الكتاب كذلك أن انتشار مثل هذه التمثلات يكشف جهلًا بطبيعة الفيروس، ويؤدي اشتغال مثل هذه الصور النمطية إلى بروز مواقف استعمارية، كما شهد على ذلك تصريح طبيبين فرنسيين طالبَا بتجريب لقاحات (SARS-CoV-2) على الشعوب الأفريقية.

ثانيًا: مقومات أفريقيا المستقبل

عالج الكتاب مختلف المقومات الضرورية، لما بعد كوفيد-19، والتي تتمثل فيما يلي:

1. تغيير موقع أفريقيا في نظام العلاقات الدولية وبناء نظام اقتصادي عالمي جديد

وِفق الكتاب، سيكون فحص العلاقات بين وضعية أفريقيا والمحيط الخارجي وبين وضعيتها الحالية في إطار التقسيم العالمي للشغل، ودور الفاعلين الخارجيين (الشركات المتعددة الجنسيات، ومجموعات المصالح الاقتصادية... إلخ) في ارتباط بفاعلين داخليين أفارقة، حاسمًا في كل مبادرة تغيير أو في كل رغبة في الحفاظ على الوضعية السائدة في البلدان

22 - Kouassi Lazare Ettien, "L'Afrique face au Covid-19: Urgence et opportunité," in: Kipré (dir.), p. 376.

23 - Ibid., p. 385.

24 - Faustin Séri Dédy, "Conscience historique et conscience sanitaire: Le Covid 19 comme dissolvant et tonifiant pour l'Afrique," in: Kipré (dir.), p. 171.

25 - Pierre-Franklin Tavares, "Etre et finalité du SARS-CoV-2, et phénoménalité du Covid-19," in: Kipré (dir.), p. 87.

الأفريقية؛ لأن استثارة التغيير في أفريقيا يتطلب بناء نظام اقتصادي عالمي جديد[26] كفيل بتجاوز عجز الحكامة الدولية الحالية. ليس تغير أفريقيا هو تنميتها. لقد عملت كل دولة أفريقية لتنمية بلدها، في إطار ظروف وطنية تتسم باستحواذ الخبراء وأصحاب شواهد عليا على زمام أمور البلدان الأفريقية، وأخرى دولية يهيمن فيها نظام غربي نيوليبرالي في الإنتاج والتراكم والاستهلاك والابتكار، من دون أن تتحقق مطامح شعوب القارة في التنمية. إن تغيير أفريقيا يعني تحريرها من الجوع والفقر الأخلاقي، ويكمن الحل في أمور تبدو مستحيلة اليوم هي: القطع مع الكولونيالية من جهة أولى، ووضع نهاية لنظام اقتصادي غير عادل من جهة ثانية، وتعزيز التعاون الأفقي بين الدول الأفريقية من جهة ثالثة[27].

2. تحقيق الأمن الغذائي

يتفاقم اللاأمن الغذائي أثناء انتشار الأوبئة، وخصوصًا أن أفريقيا تمر على الدوام بأزمات غذائية، لذا، ناقش الكتاب مفهوم الأمن الغذائي الذي ظهر في السبعينيات، مُركِّزًا على العنصر الأهم في هذه المفهوم وهو الوصول إلى الغذاء؛ لأن هناك دولًا تنتج غذاءً من دون أن يتمكن جميع سكانها من الوصول إليه، والبقاء في مأمن من الجوع مثل الهند، وهناك دول أخرى لا تنتج الغذاء، غير أن مواطنيها يصلون إلى الغذاء الكافي مثل دول الخليج[28]. وبعد تحليل مختلف الأسباب التي تحول دون تحقيق الأمن الغذائي: الطبيعية والمناخية والاجتماعية والاقتصادية والبيئية والصحية، بيّن الكتاب أن سبب اللاأمن الغذائي في أفريقيا سياسي بالدرجة الأولى يتمثل بالاختيارات الاقتصادية وبالسياسات الفلاحية الريعية التي لا تلبي حاجات الشعوب (القهوة، والكاكاو، والقطن... إلخ)، وإنما تستجيب لاستراتيجيات المتربولات الاستعمارية. ومن آثار هذه السياسات أن 85 في المئة من المواد الغذائية المستهلكة في هذه القارة مستوردة من آسيا وأوروبا وأميركا، علمًا أن أفريقيا تتوفر على 65 في المئة من الأراضي الخصبة على مستوى الكرة الأرضية، وهو ما حدا بالكتاب إلى اقتراح أفكار يعتبرها كفيلة بضمان الأمن الغذائي، على الأمدين البعيد والقصير.

3. تطوير البحث العلمي والتكوين والتكنولوجيا

في عالم غير عادل خصّ أفريقيا بتصدير المواد الأولية والغرب بإنتاج العلوم، تساءل الكتاب عن دور العلم في أفريقيا. وبعد استعراض ماضي العلوم في هذه القارة، يقر الكتاب باستحالة تصور سياسة تصنيع من دون سياسة علم وتكوين مرتبطين بالبحث والابتكار، ما يتطلب سياسة متوافق حولها في الإطار الأفريقي واقتناص الفرص المتاحة (عولمة، وترحيل الخدمات... إلخ) لتطوير البحث العلمي.

طالب الكتاب[29] بأفريقانية مؤسسات البحث العلمي، لأن اللجوء إلى مجلات البحث الغربية لتطوير البحث يقبر مبادرات أفريقيا العلمية، ويدعو إلى تأسيس أكاديميا أفريقية للتصديق على نتائج الأبحاث، ما دامت كل دولة تتوفر على مدونتها للبحث العلمي؛ كما في فرنسا وروسيا. وبناء على ذلك، يجب تطوير أكاديميا أفريقية، وتعزيز التنسيق بين الجامعات الأفريقية ووضع خطة لسياسة بحث أفريقية قادرة على تنمية أفريقيا وتغييرها على نحو أفضل.

ينتهي الكتاب في قسمه الثالث، بورقة حول سيناريوهات استشرافية لما بعد كوفيد-19، ما يعني أن الهدف من إصداره هو إطلاق التفكير الجماعي لوضع مخطط استراتيجي لأفريقيا المستقبل، وتنص الورقة على ما يلي:

- استبدال الموقف السلبي أو رد الفعل الذي يميز تدبير التنمية في مجتمعات أفريقيا بموقف استشرافي يتوقع التحولات السريعة التي يعرفها العالم، وتعرفها هذه المجتمعات.

26 - Justin Katinan Koné, "L'Afrique : l'audace du changement," in: Kipré (dir.), p. 309.

27 - Laurent Dogbo Nahounou, "La crise du Covid-19 : l'Afrique entre angoisse et optimisme," in: Kipré (dir.), pp. 230-249.

28 - Soro, p. 351.

29 - Mellou, p. 152.

- تجاوز المدى القصير في التخطيط وتصور المشاريع وفق منظور بعيد المدى، وربما هذا هو الطريق الوحيد الذي يقود نحو قرارات ملائمة ومستدامة، ويمنح الوقت والموارد الضرورية لمواجهة التحولات والتحديات المستقبلية.
- استغلال وباء كوفيد-19 قصد تعبئة مخزون الإنتاجية الذي تتوفر عليه المجتمعات الأفريقية، لتكون قادرة على الخروج من الأزمة التي تغرق فيها حاليًا، وإعادة الارتباط مع النمو والتقدم.
- إطلاق تفكير استشرافي لما بعد كوفيد-19 من شأنه أن يؤدي إلى «الاستعداد لتغيير استشرافي»، والتحرك من أجل استثارة تغيير مرغوب فيه.

مناقشة ختامية

بصرف النظر عن كون صاحب فكرة المشروع لورون غباغبو Laurent Gbagbo زعيم سابق لدولة أفريقية هي ساحل العاج، وكذلك عن المهمة الرسمية السابقة لمنسق هذا المشروع الذي شغل منصب سفير لهذا الزعيم بفرنسا، يتبين أن للكتاب أهمية كبيرة، فهو من جهة إنتاج فكري لنخب أفريقية، تتلطع إلى بناء أفريقيا الغد، ومن جهة أخرى، عمل أكاديمي مُحكَّم، يؤسس لإطار عام للتفكير حول مستقبل أفريقيا، أشرفت عليه لجنة علمية، لها تجربة في إدارة المشاريع البحثية مع منظمات دولية مثل اليونسكو، ومنظمة الصحة العالمية، وغيرهما من المنظمات الدولية.

وبطريقة كهذه، استثار الكتاب الذكاء الجماعي للنخب الأفريقية المساهِمة في هذا العمل، وتمكن من تحليل وباء كوفيد-19 في إطاره العام (الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والدولي)، وهذا من الأهمية بمكان، لأن مسألة الصحة لا يمكن فصلها عن التوجهات السياسية المطبقة دوليًا ووطنيًا.

يضاف إلى ذلك أهمية أخرى، تتمثل في اعتماد الكتاب الإطار القاري في التفكير، وتجاوز النظرة القُطرية الضيقة، بخلاف بعض محاولات التفكير في ما بعد وباء كوفيد-19 التي بقيت وفية لنظرة قُطرية محدودة.

يغلب على الكتاب السعي إلى تغيير النماذج السائدة، وهي قضية من الأهمية بمكان، نظرًا إلى ما كشفه هذا الوباء من تآكل النماذج المطبقة، المقترحة من المؤسسات الدولية، التي حان وقت تغييرها، لما ترتب عليها من مشاكل، خصوصًا ما يتعلق بخوصصة الخدمات الصحية، والحد من تدخل الدول في الجانبين الاقتصادي والاجتماعي، وهيمنة البراديغم النيوليبرالي في خطاب المؤسسات الدولية.

يلاحظ القارئ المتمعن في مضامين الكتاب مفارقات في بعض مساهمات الباحثين، فمن جهة يسعى الكتاب لوضع استراتيجية لأفريقيا الغد، ومن جهة أخرى نرى مساهمًا في هذا العمل هو كواسي لزار إتيان يؤكد أن أجندة 2063 هي الإطار الاستراتيجي المستقبلي للقارة، ما يوحي بعدم حاجة المجتمعات الأفريقية إلى استراتيجية جديدة تستدعي انشغالًا جماعيًا. وبينما انتقدت مساهمة بيير فرانكلين تفاريس ما سماه تمثلات حول أفريقيا وحول كون الأفريقي يمتلك مناعة بشكل طبعي ضد وباء كوفيد-19، نجد مساهمة كواسي لزار إتيان تعزز هذا التمثل لما أشارت إلى خصوصية تجربة الأفارقة مع الأوبئة، وتحدثت عن مناعتهم الطبيعية المكتسبة ضد الأوبئة خلافًا لشعوب الدول الأوروبية. يمكن أن تعكس مثل هذه المفارقات حيوية فكر المساهمين في الكتاب، وخصوصًا أن أمورًا كثيرة تتعلق بهذا المرض لم تُحسم بعد، ما يصعب معه تقديم أجوبة نهائية.

لا يكتسي أي كتاب أهمية معتبرة إلا عندما يستثير نقاشًا واسعًا، وأعتقد أن كل ما ورد في الكتاب يستدعي النقاش، وقد توقع الكتاب بعضًا منها، من قبيل غلبة الطابع الوطني في التفكير، وفي تدبير المشاكل، وثقل العلاقات الدولة، وضعف الموارد المالية، وتواطؤ النخب الداخلية المستفيدة من الأوضاع القائمة مع نظام العولمة غير العادل.